

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

في الحاجة إلى أصالة الإصلاح

إن حركة التحديث الإصلاحية في تحقيقها التاريخي بالغرب، والتي حمل مشعلها «الإنسان الأوروبي الجديد»، العقلاني، المسؤول، أحدثت نقلة نوعية في ظروف عيش هذا الإنسان، وأنقذته من كثير من الهزائم، أمام المرض، والجوع، والبرد، والخوف، وعززت الثقة بالعقل وأساليبه^(١)، واستهوت بهذه النجاحات الكثيرين خارج أوروبا شرقًا وغربًا، بما فيهم المسلمين في خريف حضارتهم.

وهكذا، إذا كانت الرغبة والتطلع إلى نقل هذه الحركة إلى كافة أرجاء المعمور رغبةً عارمةً، تساوى فيها سائر البشر شرقًا وغربًا، مهما كانت أديانهم وتجاربههم، أملاً في تحسن ظروف

(١) كان الإنسان الأوروبي قبيل عصر النهضة يعاني من المجاعات المتتالية، وانعدام الأمن الذي اضطره إلى التخلي عن حريته والارتقاء في أحضان الإقطاعيين . . . ولم يستطع التخلص من هذه الولايات إلا بعد عصر النهضة، وما جلبته له القيم الجديدة.

عيشهم^(١)، فإن هذه الرغبة في البلاد العربية والإسلامية اعترضتها بعض العوارض، من أبرزها: الظهور الإمبريالي للغرب الليبرالي، الشيء الذي جعل تقليده، والإفادة منه أمراً مقروناً بطعم الخيانة، أو في أحسن الظروف ملتبساً ومتلبساً بها، وهو ما أثر على محالات الاقتباس والإفادة؛ والتعارض بين تحقق مفهوم الإنسان الجديد (العقلاني والمسؤول) والنفوذ الديني، الذي يعكس الخصوصية التاريخية لنشأة الإصلاح الغربي.

إن الظروف التي أحاطت باستقبال نموذج التجربة الإصلاحية الغربية بالعالم العربي أثرت على مردوديتها الحضارية والتقدمية، وأورثت العرب سلسلة من المشاكل والخلافات لا زالت مستمرة إلى اليوم، ففي الوقت الذي كان العقل العربي بحاجة إلى تحليل نقدي لتلك الحركة، يؤسس لمفهوم «الإنسان العربي الجديد»، ويعزز معاني المسؤولية والعقلانية في تفكير وممارسة هذا الإنسان، دون الدخول في صراع مع الإسلام، وجدنا أغلب العرب إما كارهين لهذه المعاني الجديدة التي جاءت من الغرب كرههم للمستعمر، وبالتالي مهووسين باستعادة الأصول؛ وإما متلهفين لهذه المعاني، يُلْهَجُون بِذِكْرِهَا، ويستبطنون صراعاتها وعداوتها، وخاصة صراعاتها مع الدين. وقد أدت هذه الظاهرة إلى بروز اتجاهين متعارضين في الخطاب النهضوي العربي: خطاب يتساهل

(١) ولعل أكبر تجسيد لهذه الرغبة هي البعثات العلمية التي أرسلتها عدد من دول الشرق إلى أوروبا، والتصاعد الحاد لدعوات الاقتباس من الغرب التي اشتهرت في القرن ١٩ م.

في نقد الذات، وبالمقابل يتطرف في نقد التجربة الإصلاحية الغربية ومخرجاتها؛ وخطاب يحتد في نقد الذات، ويتساهل مع هذه التجربة الغربية.

إن الفقر في الرؤية النقدية لتجربة الإصلاح الغربية، لم يعق من الناحية التاريخية رسوخ ما نسميه هنا بـ «التحديث الموضوعي»، التي تطالعنا أماراتها في كل المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، المتولدة عن زواج الإكراه بين العرب والغرب منذ القرن ١٩م على الأقل، غير أنه أفقد -بالمقابل- المشروع النهضوي العربي وحدته، وطاقته الإصلاحية، وجعله مرتبكا، تذروه الرياح، ويتأرجح مائلا بين الخصوصية والتغريب.

للأسف الشديد، لم ينجح العرب في التوافق تاريخيا حول مفهوم «الإنسان العربي الجديد»، المسؤول، العقلاني، القادر على حمل أعباء النهضة والتقدم، بالرغم من المدة الطويلة نسبيا التي تفصلهم على التعرف الأولي على تجربة الإصلاح الغربية. وقد عبرنا عن هذا الفشل في هذه الدراسة بأزمة الأصالة في الفكر العربي، والتي لا تعني -بالضرورة- أن يكون هذا الفكر إسلامياً، أو خلافاً، بل معناها أن يكون انبثاقاً محلياً، أصيلاً، وإبداعاً حراً، يغني التجربة الغربية ولا يفقرها، يغني بالأساس التجربة الإنسانية، فالتقليد الأعمى، قاتل أعمى ..

وهكذا؛ إن الغائب الأكبر في الممارسة الفكرية العربية منذ بواكر عصر النهضة إلى اليوم تقريباً، سوى في حالات قليلة، ما

أسماء المفكر والفيلسوف المغربي عبد الكبير الخطيبي «النقد المزدوج»، ومن القلائل الذين نجحوا في ممارسة هذا النوع من النقد الفيلسوف المغربي -أيضاً- محمد عزيز الحبابي الذي أبدع خطاباً إسلامياً عربياً في نقد كلِّ الإنسية الليبرالية والإنسية التراثية في مشروعه حول الشخصية، ومن أهم أعماله في هذا الباب «الشخصانية الإسلامية» و«من الحريات إلى التحرر».



إن هذا الكتاب هو مقارنة معرفية مندمجة، يتضافر فيها التاريخ، مع التحليل، مع النقد، لبناء محتوى معرفي علمي، يؤمن بإمكانية قيام إصلاح أصيل، لا يصطدم بالضرورة مع الإسلام، إصلاح يشق طريقه الصعب بالإبداع، ويسهم في أنسنة العالم. قد يبدو هذا الأمر للبعض أقرب إلى الحلم منه إلى الحقيقة، لكن ماضينا القريب والبعيد، يجعلنا على ثقة عالية بالمستقبل، فالأرض التي أنجبت ابن رشد، وابن خلدون، والخوارزمي . . ، لا زالت خصبة، وقادرة على الإنجاب مرة أخرى . . .

لقد قسمنا عملنا في هذه الدراسة على أربعة فصول: تناولنا في الأول منها السياق التاريخي لتلقي العرب لمفهوم النهضة والإصلاح الغربي؛ وتناولنا في الثاني مسارات الإصلاحية الكلاسيكية العربية، وأهم أجنحتها؛ بينما خصصنا الثالث لتقديم نموذج لمسار الإصلاح الذي تقدمه الليبرالية الجديدة، وفي الفصل الأخير قمنا بتقييم المنجز الإصلاحي بالعالم العربي.

بقي أن نعترف للقارئ الكريم في آخر هذه المقدمة، وقبل أن يسلم عقله لهذه العبارات، ربما وجد في بعض الأحيان نقصاً في التفاصيل، أو تجاوزاً لبعض الأعلام، وبعض التجارب .. ، فليعلم أن ذلك لا يرجع لعجزنا عن الإحاطة، أو التقصي .. ، بل سبب ذلك الرئيس هو حيز هذه الدراسة، والظروف المحيطة بها، ولو استسلمنا لهوانا في بعض النقاط لطال الحديث، وتجاوز المطلوب .. ، وربما وجد في أحيان أخرى أن الحديث ربما يعني تياراً من تيارات الإصلاحية العربية وهو التيار التغريبي أو الليبرالي، فذلك لأنه التيار الذي هيمن على الفكر الإصلاحي العربي في مراحل المتقدمة، والذي كان له نفوذ واسع على الفاعلين في مجال الإصلاح بالعالم العربي.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل

الأربعاء ١٢/١١/٢٠١٤

طنجة شمال المغرب

